آخر سلالة

(رواية)



رضا الحكيم الشعيري

آخر سلالة

رواية

رضا الحكيم الشعيري

آخر سلالة

رضا الحكيم الشعيري

الطبعة الأولى، 2026

© 2026 رضا الحكيم الشعيري

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

لا يجوز نسخ هذا الكتاب أو إعادة نشره، كليًا أو جزئيًا، بأي وسيلة، دون إذن كتابي من صاحب الحقوق، باستثناء الاقتباسات القصيرة لأغراض النقد والمراجعة.

هذه رواية. شخصياتها وأحداثها متخيّلة، وأي تشابه مع أشخاص أو وقائع حقيقية محض مصادفة.

إهداء

إلى كل من أحبّ، وخاف،

ومدّ يده لينقذ حياةً أخرى.

وإلى عالمنا، بكل ما فيه من نقص،

وبكل ما لن يعوّضه شيء حين يغيب.

الفهرس

القسم الأول — أشياء نفعلها كي نعيش

الأول · جرح في البيت 8

الثاني · مدينة لا تنتظرنا 19

الثالث · اليد الجديدة 31

الرابع · اختبار على جسد حي 42

الخامس · جيل لا يعرف الانتظار 53

السادس · قرار العبور 64

القسم الثاني — الضفة الأخرى

السابع · مصنع الأجساد 78

الثامن · وجهها الأول 85

التاسع · الأطفال الذين عاشوا 94

العاشر · الطفل الذي يريده الجميع 102

الحادي عشر · بيت هالة 110

الثاني عشر · ما أنقذ الجدة 119

الثالث عشر · أنت تتحدث عنا 127

الرابع عشر · سقوط آخر أمل 138

الفهرس — تتمة

القسم الثالث — ما نختار إنقاذه

الخامس عشر · الماء عند العتبة 149

السادس عشر · موافقة ابنة 155

السابع عشر · زمنان في غرفة واحدة 162

الثامن عشر · العبور الثاني 168

التاسع عشر · رائد تحت الأنقاض 174

العشرون · النجاة 182

الحادي والعشرون · قرار رحيم آخر 188

الثاني والعشرون · تفكيك البيت 194

الثالث والعشرون · الذين أنقذناهم 201

القسم الرابع — عالم بلا أصحابه

الرابع والعشرون · أربعون عامًا من النجاح 208

الخامس والعشرون · وفاة لا تُصلح 220

السادس والعشرون · المدن التي تركناها 229

السابع والعشرون · المائدة التي تصغر 237

الثامن والعشرون · ما لا تستبدله اليد 246

التاسع والعشرون · لا أحد يتذكر الرائحة 255

الثلاثون · انتهاء حقبة 264

القسم الأول

أشياء نفعلها كي نعيش

الفصل الأول

جرح في البيت

طنجة، ربيع 2246

كان الدم قد بلغ حافة لوح الخشب حين قالت نور إن السكين باردة.

رفع يونس رأسه عن الإبريق. رأى إبهامها ثابتًا إلى جوار حبة الطماطم، والسكين في يدها الأخرى، ثم قطرة تسقط على البلاط بين قدميها الحافيتين. لم تسحب يدها. ظلت تنظر إلى النصل بانزعاج صغير، كأنها وجدت عيبًا في أداة كانت تعمل جيدًا أمس.

قال: «اتركيها.»

التفتت إليه. في اللحظة التي تحركت فيها شفتاها لتسأل، أفلتت السكين وارتطم مقبضها بالأرض.

«آه!»

جاءت الصرخة متأخرة. لم يكن التأخر طويلًا؛ أقل من الوقت الذي يحتاج إليه المرء لينادي شخصًا في الغرفة المجاورة. لكنه ترك في يونس فراغًا لم يستطع ملأه وهو يقطع المسافة بين الموقد والطاولة.

كانت ميرا أقرب. أمسكت معصم نور، وأبعدت اللوح عن حافة الطاولة، ثم شدت من العلبة المثبتة قرب الحوض قطعة شاش. انثنت سبابتها اليسرى قليلًا أكثر مما ينبغي. رآها يونس ترد الإصبع إلى موضعه بإبهامها قبل أن تضغط على الجرح.

«أريني.»

قالت ميرا، من غير أن ترفع يدها: «اضغط هنا أولًا.»

وضع إصبعيه فوق الشاش. جلست نور على الكرسي الذي دفعته أمها بركبتها، وضمت قدميها إلى عارضته السفلى.

«قلت لك إن هذه السكين حادة»، قال.

نظرت إليه نور نظرة يعرفها: النظرة التي تقول إنه يستطيع أن يكون طبيبًا أو أبًا في هذه اللحظة، لكن محاولته أداء الوظيفتين معًا ستفسد إحداهما.

«وأنا قلت لك إنها كانت باردة.»

«النصل يبرد قرب النافذة.»

«لم أقل إنه كان قرب النافذة.»

رفع الشاش بحذر. شق صغير في الجانب الداخلي للإبهام، يكفي ليفسد صباحًا ولا يكفي عادة لإخافة طبيب. غسل الجرح، وقرب حافتيه، وأعطى ميرا اللفافة الرقيقة. مدتها بيدها اليمنى، بينما بقيت اليسرى على ركبة نور، ساكنة على نحو متعمد.

من النافذة المفتوحة جاء صوت احتكاك خفيف. كانت وحدة تنظيف تتقدم على الجدار الخارجي، ست قوائم تنتهي بأقراص صغيرة، وفي بطنها خزان ماء عكر. توقفت حين أحست بفتحة النافذة، واستدارت لتلتف حولها. وراءها، في المضيق، قطعت سفينة شحن بيضاء خيط الضوء الممتد من جهة الشرق. لا مقصورة مرتفعة في مقدمتها، ولا ظل لأحد على سطحها. إلى جوار السفينة سارت آلتان بحريتان منخفضتان، تلمع على ظهريهما قطرات لم تجف بعد.

مد يونس يده إلى النافذة ليغلقها، ثم تذكر أن المفصل السفلي عالق. كان عليه أن يرفع الإطار قليلًا قبل أن يجذبه. فعل ذلك بكتفه، وعاد إلى نور.

«متى شعرت بالألم؟»

«حين قلت آه.»

ابتسمت ميرا. لم يبتسم هو.

«قبل أن ترمي السكين أم بعدها؟»

هزت نور كتفها. «لا أعرف. جرحت نفسي، يا أبي. يحدث هذا للناس.»

عرف من طريقتها في نطق الكلمة الأخيرة أنها سمعت خوفه قبل أن يسمعه هو. ترك يدها، ثم أخذها ثانية بحجة النظر إلى الضماد.

في الخامسة عشرة كانت أصابعها أطول من أصابع أمها، وأظافرها مقصوصة بغير انتظام لأنها تقصها بأسنانها حين تركز في شيء. فوق الظفر الأوسط بقعة زرقاء من صباغ استخدمته في اليوم السابق. لم يزلها الغسل. طمأنه هذا العيب الصغير أكثر مما طمأنته حافتا الجرح المتقاربتان.

طلب منها أن تغمض عينيها، ولمس طرف إصبعها الصغير.

«أي إصبع؟»

«هذا الذي تلمسه.»

«نور.»

«الصغير. وهذه البنصر. وإذا واصلت، سنصل إلى الإبهام الذي قطعته قبل قليل.»

أعاد الاختبار في اليد الأخرى. أجابت بسرعة، ثم فتحت عينًا واحدة لتنظر إلى أمها.

قالت ميرا: «دعيه ينتهي.»

كانت قد أبعدت السكين وغسلت الدم عن البلاط. بقيت نقطة عند مفصل إصبعها، فلم تمسحها. لمح يونس رجفة قصيرة في يدها اليسرى، رجفة تنتهي قبل أن تستقر عليها العين.

«وموعدك؟» سألها.

«غدًا.»

«قلت غدًا يوم الخميس.»

«وهذا الغد حجزته بالفعل.»

انحنت نور لتتفقد قدمها. كان الدم قد مس ظفر الإصبع الكبير، ففركته بطرف القدم الأخرى.

«سننتهي كلنا في الورشة»، قالت.

«أنت في العيادة»، قال يونس.

سحبت يدها من بين يديه ببطء، منحته وقتًا ليشعر بأنه هو الذي أطلقها. عاد إلى الإبريق. انكمش النعناع في الماء، وارتفعت منه رائحة مرّة. أطفأ الموقد قبل أن يفور، ثم وجد أنه لا يتذكر متى أشعله.

كان هذا المطبخ أصغر مما توحي به النافذة. إذا جلس الثلاثة وجب أن يختار الداخل طريقه بين ظهر ميرا والموقد. على الحائط مقابل البحر ثبتت بلاطتان مختلفتان عن بقية البلاط؛ كسر يونس القديمتين حين حاول تعليق خزانة، وأصرت ميرا على ترك البديلتين ظاهرتين. قالت يومها إن البيت ينبغي أن يحتفظ بما فعلوه به. تحت البلاطتين امتد خط من علامات القلم، سنوات نور الأولى، مع تاريخ قصير عند كل ارتفاع. في العلامة الأخيرة بالغت نور بمقدار إصبع، وادعت أن الأرض هبطت.

نظر يونس إلى الخطوط وهو يقسم الخبز. كانت آخر علامة صحيحة أسفل كتف ميرا؛ الآن كانت البنت تجادلها في الوقوف إلى الحائط، خشية أن يتبين أنها تجاوزتها فعلًا.

حين سكن النزف، مالت نور إلى علبة الشاي وأخرجت منها ملعقة صغيرة، ثم أعادتها. كانت تفتش عن السكر الذي نقلته ميرا إلى خزانة أعلى منذ أن غزت المطبخ حشرات دقيقة.

قال يونس: «على يمينك.»

مدت يدها إلى اليسار متعمدة هذه المرة، ونظرت إليه. خفّ شيء في وجهه، فأدركت أنها نجحت. تناول السكر ووضعه قربها، ثم أعاد الكيس إلى موضعه الأول.

«أحتاج منك خدمة»، قالت.

«قولي.»

«إذا سألتك المعلمة عن المشروع، لا تقل إنك أصلحت الخشب.»

«أنا أصلحته.»

«أمسكته حتى يجف. هذا لا يجعلك صاحب المشروع.»

قالت ميرا: «له حصة في ضغط الخشب.»

«حصة صغيرة.»

تذكر يونس كيف كان يمسك الإطار في الليلة السابقة، وكيف جاءت نور بكوب ماء فوضعته قرب يده لأن عليه ألا يتحرك. استغلت حاجتها إلى مساعدته لتصدر إليه تعليمات بصوت يشبه صوته في العيادة. كانت فرصة نادرة لأن يكون نافعًا بالطريقة التي تختارها هي.

قال: «سأقول إنني كنت تحت إشرافك.»

«هذا صحيح.»

من الحائط القريب جاء صوت طرق خفيف، ثلاث نقرات تفصل بينها مهلة. نظرت ميرا إلى الساعة، ثم نهضت. فتحت الخزانة وأخرجت علبة معدنية فيها مفك صغير وقطعتان من مادة لاصقة.

«باب السيدة زهور؟» سأل يونس.

«الحساس. كلما جاءت من السوق يتعرف إلى عربة المشتريات قبل أن يتعرف إليها، ثم ينتظر حتى تمر العربة كي يفتح.»

قالت نور: «يمكنها أن تغير الباب.»

«تستطيع.»

«لماذا لا تفعل؟»

«المقاس الجديد يحتاج إلى تعديل الجدار. قالت إنها تستطيع الانتظار عشر ثوانٍ أكثر، لكنها لا تستطيع تنظيف غبار البناء شهرًا.»